

لغة السخرية في الخطاب النقدي الجزائري المعاصر

-محمد الهادي الحسني أنموذجا-

The language of irony in contemporary Algerian critical discourse

-Mohammed Al-Hadi Al-Hassani as a Model-

الدكتور: فيصل كوريفة.

faycalmammar88@gmail.com

جامعة علي الونيسي – البليدة 02- (الجزائر)

تاريخ القبول: 2020/10/11

تاريخ الإرسال: 2020/09/18

الملخص:

هذه الورقة: صاحبت فيها واحدا ممن تعددت فيهم جوانب الثراء والغنى، هو رجل ثقافة وفكر، وهو أديب وناقد بصير، إنه مؤرخ ومصلح يحمل هموم أمته في قلبه، وعلى قلمه يقع فعل إنتاج الثقافة وصناعة الوعي، هو محمد الهادي الحسني الجزائري، حيث تناولت موضوع السخرية في خطابه النقدية، حاولت كشف اللغة التي توسلها في تلك الخطابات، بمعنى كيف كانت لغته الساخرة؟ وهل استعملها على نحو خاص؟.

الكلمات المفتاحية: السخرية؛ الخطاب، النقد، اللغة، المقاصد، الدلالة، القيم التعبيرية؛ قيم المجتمع.

Summary:

This paper; In it I accompanied one of those who have many aspects of wealth and wealth, who is a man of culture and thought, and he is a writer and a visionary critic, he is a historian and reformer who carries the concerns of his nation in his heart, and on his pen is the act of producing culture and creating awareness, he is Muhammad al-Hadi al-Hassani al-Jazaery. Criticism, I tried to reveal the language he invoked in those speeches, in the sense of how his sarcastic language was? Did he use it privately?

Keywords: sarcasm; the speech; Criticism, language; The purposes; indication; Expressive values; Community values.

المقال:**1. مقدمة:**

تنهض السخرية بمهمة خطيرة في الخطاب النقدي (السياسي والاجتماعي والثقافي)، كونها وسيلة تسهم بشكل فاعل في سبيل خدمة القضايا الانسانية، والمحافظة على النظام الاجتماعي وتماسكه، فهي تعمل على تلافي الاضطرابات الفكرية الشاردة عن قيم المجتمع، كما تنبه عن الأضرار الجمة للعيوب والمساوئ الناشئة عن التمرد على القيم الانسانية وتشعر بخطورتها، بحيث تدخل السخرية ضمن الأفعال الإنجازية بوصفها إخبارات عن أشياء يراها المخاطب الساخر على غير وفاق وأطر المجتمع وقوانينه النازمة لعلاقة الفرد بالجماعة.

يُساق خطاب السخرية سوقا رقيقا مستوفيا شرائط التعبيرات البليغة، بحيث يعتمد الناقد الساخر إلى استصحاب مع الألفاظ المألوفة؛ المعاني غير المألوفة لدى الهازئ به، وجعلها تقع من ذهنه موقعا مؤذيا، أخذا تفرع سمعه متمكنة منه، بفعل ما اتسمت به من ألق فني وقدرة رهيبة على حبك القيم

التعبيرية، وتصوير المشاهد وسرد المواقف، فالسخرية عادةً تجيء بإمكانات تعبيرية تتفجر إبانة عن رغبة جامحة في إفراغ الأذى في النفس، وإيلاهما تلقاء تمردها على القيم النازمة للمجتمع، وفضح صاحبها المتواري خلف قشة رثة.

2. تعريف السخرية:

1.2. السخرية في القرآن العظيم:

الناظر في خطاب الباري تعالى؛ يجد أن طائفة من الآيات البينات منه، قد انتظمت معنى السخرية، وذلك في مواضع متفرقة، حيث جاءت على أشكال مختلفة، فهي تفيد معنى الاستهزاء تارة، وأحيانا أخرى تفيد معنى الضحك، كما أنها أفادت أيضا معنى التفكه، وتجيئ في القرآن لتفيد معناها الحرفي (المعجمي).

وردت السخرية في القرآن بمعنى الاستهزاء خمس عشرة مرة¹، منها قوله تعالى: "ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون"²، فالاستهزاء ههنا "مرادف للسخرية في كلام أئمة اللغة"³، وكثيرا ما يكون التلازم قائما بين الاستهزاء والسخرية في آية واحدة للدلالة على أن معناهما واحد.

جاءت لفظة السخرية في القرآن لتفيد معنى الاستهزاء المفضي إلى الضحك، قال تعالى: "فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون"⁴، فالسخرية تفيد هنا معنى الاستهزاء "لأن ما بعدها أليق لها لقوله تعالى: "وكنتم منهم تضحكون"⁵ ولا بد أن الاستهزاء مدعاة للضحك مفضي إليه.

وردت السخرية بمعنى الغمز والفكاهة، وهي أفعال تتأدى إلى الضحك بقصد السخرية والاستهزاء، يقول الله تعالى: "وإذا مروا بهم يتغامزون، وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فاكهين، وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضآلون وما أرسلوا عليهم حافظين، فالיום الذين ءامنوا من الكفار يضحكون"⁷ بمعنى "ملتذنين بذكرهم والسخرية منهم"⁸ والاستهزاء بحالهم لأنهم اختاروا ديناً غير دين آبائهم، لذا فهم يعتقدون أنهم على ضلال.

وتجئ السخرية لإفادة معناها الحرفي كما في قوله تعالى: "بل عجبت ويسخرون وإذا ذكروا لا يذكرون وإذا رأوا آية يستسخرون"⁹ فلفظة السخرية جاءت للدلالة على المعنى الذي وضعت له في الأصل، فلا جرم أن معناها هنا "بل عجبت من قدرة الله تعالى على هذه الخلائق العظيمة وإنكارهم البعث وهم يسخرون من تعجبك وتقيريك للبعث"¹⁰ أو أنهم "يبالغون في السخرية، أو يستدعي بعضهم من بعض أن يسخر منها"¹¹ وعليه أفادت السخرية في هذه الآية معناها المركزي (المعجمي).

2.2. السخرية لغة:

هي مصدر للفعل سَخِرَ، تقول: سَخِرْتُ منه أَسَخَرْتُ منه سَخَرًا وَسَخَرًا بالتحريك وَمَسَخَرًا وَسُخِرًا بالضم، قال الأخفش: سَخِرْتُ منه وَسَخِرْتُ به وضحكت منه وضحكت به، وهزئت منه وهزئت به¹²، وَسَخِرَ فلان سُخْرَةً وَسُخْرَةً ويضحك منه الناس ويضحك منهم¹³، وَسَخِرَ منه وبه سَخَرًا وَسَخَرًا ومسخرًا وَسُخَرًا بالضم وَسُخْرَةً وَسِخْرِيًا وَسُخْرِيًا وسخرية: هزئ به، والسُخْرَةُ: الضحكة،

ورجل سُخْرَةً يسخر بالناس، وفي التهذيب يسخر من الناس، وسُخْرَةً يَسْخَرُ منه وكذلك سُخْرِيٌّ وسُخْرِيَّةٌ¹⁴.

الملاحظ أن المعنى الذي أمدته المعاجم اللغوية لكلمة (سخرية) يلفه قد أفاد معنى الاستهزاء بقصد الأذية والضحك مع نية الحط من قدر المستهزئ به، والعمل على إحداث التوتر والألم في النفس حتى تضطرب وتنفعل بشدة.

3.2. السخرية اصطلاحاً:

لمفهوم المصطلح ارتباط وثيق بما أمدته المعاجم اللغوية من دلالات ومعاني للمادة التي كانت نواة لنحته أول مرة، فالمعنى الاصطلاحي لمصطلح ما؛ ليس سوى امتدادا للمعنى المعجمي، ومفهوم السخرية ليس بدعا مصروفا عن هذه القاعدة.

إن السخرية في الفكر اليوناني القديم "كانت وصفا للأسلوب في كلام إحدى الشخصيات بالملهاة اليونانية القديمة المسمى بـ"إيرون- eiran"، وكانت هذه الشخصية تتميز بالضعف والقصر مع الخبث والدهاء، كما كانت دائماً تتغلب الألازون – alazon" الفخور الأحمق، وذلك عن طريق الخداع وإخفاء ما يمتاز به من قدرة وذكاء، وبقي المصطلح الأوربي يحتفظ بذلك المعنى...وقد تمتد السخرية بهذا المعنى إلى مواقف هزلية تبعث على الضحك"¹⁵ والاستهزاء، بحيث يعمل الخطيب الساخر على شحن العبارة بالدلالات والمعاني التي من شأنها تعرية

المستهزأ به وفضحه أمام الأَشهاد وجعله ينضغط تحت وقعها الأليم جزاء وفاقا على خُرْقه.

ورد مفهوم السخرية على أنها:

"1- نوع من الهزء، قوامه الامتناع عن اسباغ المعنى الواقعي أم المعنى كله على الكلمات، والايحاء عن طريق الأسلوب، وإلقاء الكلام، بعكس ما يقال.

2- تتركز السخرية أصلا على طريقة في طرح الأسئلة مع التظاهر بالجهل وقول شيء في معرض ذكر شيء آخر، وقد اعتمد سقراط هذا المنهج في جدله الفلسفي، فكان يفحم مناظريه، ويستدرجهم إلى الاقرار بما يريد منهم، واقحم أرسطو السخرية في أبواب البلاغة وحددها بقوله؛ إنها الدلالة على الأشياء بأسماء أضدادها.

3- (أديبا) برزت السخرية في كثير من الآثار الأدبية، وعني بها عدد كبير من الكتاب والشعراء واتخذوها أسلوبا في الابانة عن آراء أو مواقف خاصة تتناول الناس أو قضايا الحياة"¹⁶ يتضح من خلال ما سبق؛ أن السخرية هي أسلوب متميز يتخذ من الدلالة الايحائية مقوما رئيسا في التعبير، حيث يعتمد الخطيب في كلامه إلى سوق معنى الشيء بما يناقضه تعبيرا عن موقفه إزاء قضية من القضايا.

وعرف المناوي السخرية بأنها "استزراء العقل معنى بمنزلة الاستنخار في الفعل حسا، ذكره الحرالي، وقال ابن الكمال: السخرية والهزء من شيء بحق عند صاحبه ولا يحق عند الهازئ"¹⁷، فالسخرية ها هنا منحى خطابي يروم التأثير في

العقل عن طريق الاستهزاء والتحقير كما تتأثر الأشياء بالأفعال الحسية التي تأتي عليها.

والسخرية في البلاغة هي "طريقة في الكلام يعبر بها الشخص عن عكس عما يقصده بالفعل، كقولك للبخل: "ما أكرمك"، وهناك صورة أخرى للسخرية هي التعبير عن تحسر الشخص عن نفسه كقول البائس: "ما أسعدني"، ويلاحظ أن الغرض من السخرية يكون هجاء مستورا أو توبيخا أو ازدراء¹⁸، والساخر إذ يضح خطابا بالمثالب والنقائص عامدا إلى الدلالات الياحائية بنية الاستهزاء ممن رآه استمرراً للضلال والسخرية من فعالة، كونه عدل عن المشترك بينه وبين مجتمعه، وأخذ يخلع على نفسه حللا من الهوان والضعفة والانصراف في غيره، فلا غرو أن السخرية بهذا المعنى إشعار الخصم بأنه هدف لانتقاد الخطاب الذي يتخذ الاستهزاء والتفكه مادته، يكون ذلك عن طريق الإشارة والتلويح، كون الياحاء أشد وقعا من التصريح.

3. لغة السخرية في الخطاب النقدي عند محمد الهادي الحسني:

ليس شيئا في الحياة يستمد وجوده من ذاته، هي قاعدة تنطبق على اللغة وما ينبجس منها، وعلى الانسان وما يصدر عنه، فكلاهما دليل على الآخر، فلا لغة من دون مستعمل يتمرس بها، ولا وجود لإنسان من دون وسيلة يتفاعل بها مع محيطه الاجتماعي، ففي "أحضان المجتمع تكونت اللغة، وُجِدَت اللغة يوم أحس الناس بالحاجة إلى التفاهم فيما بينهم"¹⁹ ونشر الأفكار، وتوصيل المقاصد والأغراض، ومن ثم فإن "وجود اللغة شرط وجود مجتمع، وهنا يتضح

الطابع الاجتماعي للغة، فليس هناك نظاما لغوي يمكن أن يوجد منفصلا عن جماعة إنسانية تستخدمه وتتعامل به، فاللغة ليست هدفا لذاتها، وإنما هي وسيلة للتواصل بين أفراد الجماعة الانسانية، إن الفرد الواحد يشارك في عملية الكلام في مواقف الحياة، وباختلاف المواقف الكلامية التي يعيشها الفرد تختلف مشاركته في استخدام اللغة، وهنا يجد الباحث من الضروري أن يميز بين اللغة بوصفها ظاهرة اجتماعية والاستخدام الفردي لها باعتباره يختلف باختلاف الأفراد وباختلاف المواقف الكلامية التي يستخدمون فيها اللغة"²⁰ ذلك أن الكلام هو أغراض نفسية للمتكلم جسدها اللغة، ونقلتها من الكمون إلى الواقع، ومن تكون الاستعمالات مختلفة تبعا لاختلاف أغراض المستعملين.

يتأصل نظام اللغة ويتشكل في أحضان المجتمع، كون اللغة مؤسسة قائمة على التفاعل بين عناصره، وثنائية (التأثير والتأثر) هي السمة الطاغية في رحابه، حيث تتوسل الجماعة اللغة لحاجتها إلى التواصل وصياغة الفكر وإنتاج الثقافة، وتطوير أساليب الحياة، واللغة هي الأخرى تستمد وجودها منه، إنها الوعاء الأمين على ثقافته وفكره، "ومن هذا المنطلق يمكن استعمال كل ظاهرة لسانية أو مفردة للدلالة على أنها علامة خطابية تدل على ممارسة ثقافية قَبَلِيَّة، فالظاهرة تكتسي طابعا تركيبيا داخل الخطاب، هذا التركيب له بعده الثقافي الخاص الذي يجب الإفصاح عنه"²¹ بطريقة خاصة تنسجم و النسق الثقافي الت تحمله اللغة وتجسده.

1.3. الألفاظ:

تكتسب الألفاظ قيمتها من خلال ما تحمله من دلالات على المسميات، والدلالة هي الأخرى تابعة لغرض المخاطب أو إن شئت قل؛ هي مقصده، "لأن دلالات الألفاظ ليست لذواتها، بل هي تابعة لقصد المتكلم وإرادته"²²، يهتدي إليها المتلقي بعد القراءة والنظر، فهو يحلل معانيها ويميز بينها استنادا إلى التوجيهات المعجمية، ذلك أن متن الخطاب يتشكل من رموز لغوية كل منها يحيل إلى معنى وضع له الاسم، بحيث يتوصل الناقد الساخر الألفاظ اللغوية البسيطة السهلة مختارة مما يتداوله الناس بشكل يومي، قريبة من ذهن المتلقي، فهو يهدف إلى توصيل معناها إلى الساخر منه حتى يفهما بيسر، ذلك أنه أفرغ فيها ما يروم من أغراض رجاء تنبيهه وتقويم اعوجاجه.

يحيك الناقد الساخر مقاصده بطائفة من الألفاظ والصيغ اللغوية المختلفة، فيها تمور الدلالات، ومنها تتناسل تفتاً تقتحم على الذهن سكونه، آخذة به نحو القراءة والتأمل، نحو ما تلفه عند محمد الهادي الحسني في خطابات النقدية عبر موضوعاته المختلفة، غير أنه في اللغة ينحى مسلكا واحدا، فهو يتكى في نقده الساخر على الألفاظ الأكثر شيوعا واستعمالا بين أفراد المجتمع، ففي سياق حديثه عن مكانة العلم والعلماء والطلبة المجتهدين في البلد، طفق يتساءل عن مكان نبوغ الجزائريين الذين كانوا مثار إعجابه وتقديره، وبعد أن استقرى التاريخ؛ علم أن نبوغهم كان خارج الجزائر، لأنها "مقبرة العلماء" والسبب يرجع عنده إلى أن الوطن "في يد ماركة نحبك يا الشُّعْبُ"²³، اختار الناقد الساخر ههنا ألفاظه من المعجم اللغوي الذي ينهل منه عامة الناس، لأنه يرى أن الماسكين بالسلطة ليس معهم ما يميزهم عن العامة، يقول: "إن الوطن في يد

ماركة .." إن الحكام عندنا في نظره مجرد علامة تجارية انتجت في مكان ما، لا يعقلون ولا يفهمون، هم جماد وحسب، لا صلة لهم بالعلم ولا بالوطن، هم أعجز خلق الله عن إنتاج شعارات تميزهم، لهذا استوردوا هاته العبارة من بلاد الزيتون الشرقية، هاته الكائنات لا تستطيع أن تنطق لفظة "الشَّعْب" نطقا صحيحا سليما من العيوب، بل تأتي على ذكرها ولا تُعرب، إنها أعجمية اللسان، لذا تجد محمدا مصرا على وضع الحركات على حروف "اللفظة" للدلالة على عيهم وعجزهم الكبير، لكنهم ألقموا حجرا عطل حركة ألسنتهم عن الكلام المستقيم.

تتوفر اللغة على إمكانات هائلة من القيم التعبيرية، قوامها المفردات والألفاظ، تجود بها على الناقد الساخر ليختار منها ما يخدم أغراضه ومقاصده، والساخر بوصفه ناقدا له الكفاية الفائقة في "التأليف بين تلك المفردات على أنحاء خاصة يتفرد بها، وفي مجال المفردات ثمة صيغ كثيرة، فمن الجموع -مثلا- صيغ متعددة من جموع التكسير، مثل: صبيان وصبية، وجهلة، وجهال، وجهلاء، غلمان وغلمة، ... يختار صيغة من الصيغ ويترك الصيغ الأخرى لأسباب قد نعلمها أو نجعلها، ولكنه يحس فيها بإضافة لا تتوفر للصيغ الأخرى"²⁴ التي لم يقع عليها اختياره، تجد نظير هذا في خطابات محمد الهادي الحسني النقدية، حيث اختار لسخريته ألفاظا تليق بمن سفه قيم مجتمعه وتنصل منها، وراح يستملح قيم ثقافة وافدة، متوسلا الكرامة في غير موضعها، ولمحمد الهادي الحسني وقفة يسخر فيها من "تلك الضجة التي أثارها "داود بروايته التي "نقنق" فيها ما نقنق"²⁵، لقد سخر محمد من "داود" ومن "روايته" السخيفة بعد أن استذكر قصة بعض النماذج الممسوخة التي كان لها قصب السبق في السقوط في حماة

التخاذل والتخلي عن المروءة، إن الناقد ههنا لم ينف عن "داود" صفة الإبداع الأدبي وحسب؛ بل هو في نظره دون الإنسان، ومن ثم فهو أعجز عن أن يصدر صوتا معقولا، مادام "ينقنق" فلا يصلح أن يكون انسانا، إذ ليس في مكنته غير "النقنقة"، إنه لا يملك غير صوت الضفدع.

المتأمل في شأن الخطاب النقدي الساخر، وما ينطوي عليه من أغراض، يتحسس في عناصره رغبة جامحة في تعرية المنحرف محل السخرية، وفضحه على رؤوس الأشهاد، حتى يفيء إلى قيم المجتمع وينسجم معها، ويؤوب إلى رشده، لعله يسلم من سهام النقد والاستهزاء به، بيد أن محمد الهادي الحسني يعلم "أن هذا الـ"داود" قد لهث حتى نشف ريقه وراء الجائزة الفرنسية المسماة "غونكور" لتدخله عالم الخالدين ولو في الدمن، فلما فات منه ما فات ... أراد أن يثبت للقائمين عليها أنه حقيق بها، وأهل لها، وأن في جعبته كثير مما حقه أن يخرج من أحد السبيلين الطبيعيين، ولكن "داود" أخرجه من فمه، وسطره بـ"القلم" الذي أقسم الله -عز وجل- به، وقد وزن رشيد بوجدره -وهو ثقة عند أهل الشّمال- هذه الرواية فحكم بأنها "نص -نص" وأنها دون "بغالهم"، وفوق "حميرهم"²⁶، في هذا النص؛ يلمس المتلقي نقدا موجعا ساقه محمد الهادي الحسني وفق أسلوب ساخر، على أن ذلك عربون محبة في مجتمعه وما يحمل من قيم، واستمساكا بأصالته، ذلك أنه عرى واحدا من أدعياء الأدب والثقافة والإبداع، حيث شرع يخلع عليه ألوانا من السخرية والاستهزاء، فكان قبل قليل قد تكرم عليه أن وهبه صوت "الضفدع"، وها هو الآن في نظره "كلبا" لا تنفك عنه صفة "اللهث" ولن يفك عنها، فهي صفة تظل لصيقة به في كل الأحوال والظروف، ثم

إنك تجد محمدا يتدرج في فضح هاته الكائنات وكشف حقيقتها وحجمها، مستندا إلى شهادة واحد ممن ينطبق عليهم خطابه الساخر، لأنه من أصحاب "الشِّمال" وما أصحاب الشمال، هذه الشهادة عادلة في نظر محمد، لأنها وضعت الحق في نصابه، وبعد أن استدعى الناقد أصوات الحيوانات وصفاتها للدلالة على حقارة ما يصدر عن المنحرفين الضالين عن قيم المجتمع الجامعة، الشاردين في طريق الغواية، حان دور استدعاء الحيوانات نفسها.

يعدل المنحرف عن قيم مجتمعه فينسلخ منها، آخذا يتوسل الفساد رجاء التميز، فيخلع على نفسه رداء رثا، لا تكاد خيوطه تتماسك عند أول نسمة تيار هوائي يصادفها، هذا المسلك يكون هدفا للناقد الساخر فيوجه نحوه السَّهم يتلوه السَّهم، فتشرع حينها أجزاء الرداء البالي تتساقط الواحدة تلوى الأخرى، حتى لا يبقى عليه شيء فيتعرى الشقي وتتكشف حقيقة طواياه، ذلك أن السخرية هي "إحدى الخصوصيات القليلة التي تميز الانسان عن الحيوان باعتبارها تعديلا للسلوك الغريزي، فالإنسان هو وحده الذي يقلب، عن وعي، الموقف المأساوي، أو موقف الشدة إلى موقف اللامبالاة"²⁷ بوصفه كائنا عاقلا تقع على عاتقه مهمة النهوض بأعباء الحياة، وعمارة الأرض، وصناعة الوعي، لا أن يستحمق فينزلق ليقع في براثن الفساد، والانحدار الأخلاقي والأدبي، أو لعله يتعلق بأنساق ثقافية وافدة حيث ينتكس فيفت في عضد أمتة، وربما أتاها الهلاك من قبله.

للكلمة دور بارز في حياكة الخطاب وتشكيله على نحو ما يرغب المنتج ويريد، بحيث يجيء موضعها في المتن حسب الأغراض المرتبة في النفس، لذا تجد المخاطب يتخير مواد اللغة ويرتبها وفق مقاصده، ذلك "أن الكلمة تكتسب قيمتها الدلالية من سياقها اللغوي، ومن خلطها الكيميائية، وتفقد هذه الدلالة عندما تنفصل عنها"²⁸، من هذا المنطلق تلفي الناقد محمد الهادي الحسني يتخير من اللغة الألفاظ التي تسعفه في صياغة خطابه الساخر، وتسهم في توصيل أغراضه بسلاسة ويسر، ودون تعثر، إن محمدا يعتقد أن "مثل "سي داود" وأمثاله كمثال الضفدعة التي رأت بقرة ضخمة، فوسوس إليها طيشها وحمقها أن تَعْبَ الماء حتى تصير ضخمة، فشربت ما شاء لها الهوى والحمق حتى انفجرت، وإلا فما الذي دفع "داود" أن يخوض "المحيط" وهو المؤهل للسباحة في "الغدير"²⁹، في هذا النص يعدل محمد الهادي الحسني عن التلميح إلى التصريح، فلا غرو أنك تجده يجنح ههنا إلى أسلوب التمثيل المباشر، لأنه بصدد ختم خطابه النقدي هذا، فرأى قبل أن ينهي؛ لا بد أن يقهر هاته الكائنات التي لم تمل من العريضة والانسلاخ من قيم الأمة ومهاجمتها من على منابر مختلفة، تبغي الإفساد وحسب، حيث توسل في خطابه التمثيلي ألفاظا تليق بـ"داود" وأمثاله، فأنت تقرأ فتجد لفظة "الضفدعة"، "بقرة ضخمة"، "طيشها"، "الحمق"، "انفجرت"، "الغدير"، إنها ألفاظ دالة على التحقير والتصغير والسخرية والاستهزاء. والتهكم والازدراء.

2.3. التركيب:

يطلق التركيب ويراد به التتابع الأفقي لوحدات الخطاب وتعالق عناصره وتآلفها، وانسجام صيغه في نسق واحد، ليشكل بذلك بنية لغوية ذات دلالات معينة، والتركيب في خطاب السخرية يتشكل من قيم تعبيرية من ألفاظ وعبارات وصيغ تحمل دلالات ساخرة، إذ ليست المزية كامنة في هاته القيم التعبيرية لأنها من إنتاج الخطيب الساخر، أو كونها مقتبسة من غيره، بل جمالها في ذاتها لأنها تنطوي على معنى السخرية، يزيد بها حسن التأليف رونقا أذا.

تميز خطاب السخرية عند محمد الهادي الحسني بعبارات وصيغ ذات دلالة ساخرة، بعضها من تأليفه، وبعضها الآخر جاءت عن طريق الاقتباس من مصادر مختلفة، استدعتها المواقف، حيث اتجه ناحيتها الناقد لجعلها توكأة فيزداد خطابه ألقا وجمالا، ويكون لدى المتلقي أكثر إقناعا، ولعل أبرز تلك الروافد التي اقتبس منها محمد الهادي الحسني؛ القرآن العظيم، والأمثال السائرة.

1.2.3. الاقتباس من القرآن العظيم:

التمس محمد العون من القرآن الكريم لتدعيم صدق ما يذهب إليه في نقده، فاقتبس منه آيات مناسبة اقتضاها الموقف الساخر، حيث بذل جهده في سبيل انسجام خطابه معها، وذلك لكيما تستوفي سخريته أشرط النصوص الخالدة، وأنت تباشر فعل القراءة، متناولا خطابات محمد، يستوقفك جلال الاقتباس وملاحظته، وهو إذ ذاك؛ يسوق إلى المتلقي ذلك الحوار الذي دار بينه وبين بعض معارفه في الأيام السالفة، وبعد أن سلما وحيا بعضهما بعضا واطمان

كل منهما على الآخر، راح الناقد ينقل مشهدا لمحاورة بعد أن رصده من كذب، لم يكن ذلك المشهد سوى ابتسامة أرتسمت على ثغر الصديق القديم، هذا المشهد كان محل قراءة نقدية ساخرة من قبل محمد، فلا جرم أن "العلاقة بين الساخر والهدف وكفاءة المتلقي الواقعي أو المفترض تلعب دورا أساسيا في تحديد القدر الذي تأخذه السخرية من هذا المكون أو ذاك"³⁰ عقمها مباشرة شرع المحاور يستجلب على نفسه قسطا من لعنة الساخر، لقد جاء دور الاستعانة بالقرآن، لأن الموقف يفرضه ويستدعيه.

يروي محمد للمتلقي نص حوار مع صديقه، مركزا على جوهر المحادثة، وبراعة فائقة جعل الأمر يلتبس على الطرف المحاور، أهو بإزاء خطاب الباري تعالى؟ أم بإزاء كلام صديق؟ كان ذلك عندما بادره بقوله: "عم يتساءلون؟"

على عجل؛ وبإيجاز عجيب، استفهم الناقد الساخر ههنا ثم راح يجلي الدلالة للمتلقي ويضفي عليها ظلالا من الوضوح والتعريية، حيث يتأتى تحديد معناها وفق ثقافة الناقد الساخر نفسه، ذلك أن "الإيجاز مع وضوح الدلالة، إنما تأتي من العلاقة الحميمية بين النحو - بمعناه الواسع والخطاب، ويبدو ذلك من الاختيارات المميزة التي تعد قضية مسلمة بين الموقف situation وحركة تنظيم الكلام أو ما يسمى بالتكتيك tactics، وإذا كان الموقف ينبغي له - في خطاب هذه المفارقة- أن يكون الموقف اللغوي النصي الذي يلائم حاجة المفارقة للتحكم؛ فإن التكتيك يتعلق بالأنماط التركيبية للخطاب، syntagmatic patterns أي طريقة تركيب وحدات العبارة بما فيها من تقديم وتأخير،

ومؤكدات؛ أو طريقة ربط العبارة"³¹، يلتمس المتلقي هذه المزية فيما أنتجه محمد الهادي الحسني، حيث اضطلع بها بكفاية فائقة، فكما تخير لمنتجه النصي الألفاظ التي تناسب غرضه النفسي، استطاع أن يختار النصوص الشريفة التي تنسجم ومقاصده التي بثها في القيم التعبيرية في معرض السخرية.

وفي موضع آخر؛ وبنفس أسلوبه الساخر المعهود، أخذ محمد الهادي الحسني يرسل شهب نقده ناحية حكام الأمة العربية، الذين تعشقوا الخلود إلى الأرض، حيث أقعدهم الهوان فظلوا عاكفين على كراسيهم المتهترئة، مستمسكين بها، فلم يقدموا شيئا ذا بال لشعوبهم، غير أنهم قتلوا خاصية الرجولة في أبناء الأمة، هذا ما جعله يذكرهم بحكام إسرائيل، وما قدموا لشعوبهم، حيث حافظوا على تلك السمة الجوهرية في الانسان، فاسمع نداء إليهم "إن إسرائيل -أيها الحكام الأشاوس- يحكمها رئيس مستقيل، وقد تخلفه أنثى، وهي تفعل ما تشاء، لأن حكامها -السابقين واللاحقين- لم يقتلوا الرجولة في شعبهم"³²، إن محمدا في هذا السياق؛ لا يمدح حكام العرب، فلفظة "أشاوس" تتجاوز معناها الحقيقي (الحرفي) إلى معنى مجازي على سبيل السخرية، لقد خاطب الناقد ههنا تلك الكائنات "بالشيء عن اعتقاد المخاطب دون ما في الأمر نفسه، إنه حكاية زعم المخاطب أو المتحدث عنه في المفارقة، هنا تختار المفارقة من اللفظ، ما يحكي هذا الزعم، ويوهم بأنه حقيقي ومقرر، في الوقت الذي تزدره وتسخر منه"³³، من ثم تكون لفظة "أشاوس" ذات معنيين، أحدهما حقيقي يتوهمه المتلقي محل السخرية أنه مدحا، وآخر مجازي بعيد، ينقض اعتقاد الساخر منه وينفي المعنى الحقيقي، وهو المقصود أصالة.

واصل محمد الهادي الحسني مساءلته للحكام العرب، حيث يعرض نتائج حكمهم ويقارنها مع -نظرائهم- في إسرائيل، وفي هذه الأثناء؛ وقع اختياره على آية قرآنية تدفع مقاصده الساخرة نحو إيلاام الخصم أكثر، وإفراغ في نفسه الأذى "أما أنتم فكل واحد منكم لسان حاله كلسان أخيه في الاستعلاء بغير الحق "ما أريكم إلا ما أرى"³⁴³⁵، في هذا النص؛ يكون محمد قد آخى بين كل حاكم عربي وفرعون الذي علا في الأرض، وأكثر فيها الفساد، حيث أضحى له إخوة كثر، إخوة في الاستعلاء بغير الحق، وإخوة في الفساد، وإخوة في قتل الشعوب، وإخوة في الطغيان والعلو في الأرض، وإخوة في الادعاء على الله، والاعتراض عليه أن يكون له مطلق التصرف، وإخوة في الكفر ونكث العهود، غير أن المفارقة ههنا هي؛ إن فرعون قهر بني إسرائيل، وأذلهم وسلط عليهم صنوفا من العذاب وألونا من الهوان، لقد قتلهم تقتيلا، فذبح أبناءهم واستحي نساءهم، ثم أخرجهم من الأرض حتى صاروا أشتاتا متفرقين مشردين، أما أنتم أيها الحكام العرب، فإن بني إسرائيل يذلونكم ويحطون من كرامتكم ويحتلون أرضكم، لقد قتلوا أولادكم ورجالكم ونساءكم، وليس من فعل تصدرونه غير تنكيس الرؤوس، وأنتم يومئذ أذلة على الأعداء أعزة على شعوبكم.

2.2.3. استدعاء الأمثال:

كما التمس محمد الهادي الحسني العون من القرآن العظيم؛ استعان كذلك بالأمثال، بوصفها قوالب لغوية تنطوي على قيم تعبيرية فائقة الدقة والايجاز، وعلى قدر كبير من البلاغة والبيان، هذا ما يجعلها خادمة أكثر

لأغراضه السّاخرة، ففي موضع ما؛ وفي سياق تعريضه بالقائمين على شؤون دور العلم والمعرفة، أورد هذا المثل "كيشاب علقولو الكتاب" ذلك أنهم رفضوا التحاق بعض الطلبة الناجحين في شهادة البكالوريا بحجة تقدمه في السن، لاعتقادهم أن طلب المعرفة يتعلق بمراحل عمرية معلومة محددة، إن موقفهم المخزي هذا؛ كان معطى نقدي ساخر، لم يفوته محمد على نفسه، إنه ينظر إلى هؤلاء على أنهم مجرد جهلة، وليس لهم من مهام جليلة في الحياة خلا حماية الجهل، لقد عملوا عكس ما أوصى به سيد البشر -صلى الله عليه وسلم- من الاجتهاد في طلب العلم خلال العمر كله، إن هذا الطالب الظافر بمقعد بيداغوجي في نظرهم؛ يلتبس الحياة في غير مواطنها و "ما عليه إلا أن ياكل القوت ويدستى الموت" لأنه بتعبير "أخينا" الكبير "طاب جنانو"³⁶، جلي هنا أن الناقد صاحب ثقافة واسعة، وذا مورث شعبي هائل، أمكنته ذكرته القوية من استدعاء ما يحتاجه من دعائم نصية تؤيد موقفه الساخر، رجاء "إنزال المتهم به منزلة متدنية تليق به، أو لنقل: غايته طلب النقائص والغمائم التي يشار بها إلى ذلك المتهم به"³⁷ لأنه محل سخط وغضب، فما من شيء قمين به غير التحقير والسخرية والاستهزاء، حيث كان يحسب أنه على شيء ولم يكن شيئاً سوى أنه "حجر على حجر".

غير بعيد عن الجامعة التي يديرها حرس الجهل كما يرى محمد الهادي الحسني؛ لأنهم زهدوا الناس في العلم، واستكثروا عليهم طلبه، ها هي جهة أخرى تشرف على التعليم والتربية، تقع من الناقد الساخر موقع النقمة، ذلك أن من يخطط لها ويضع لها البرامج والمناهج مصدر لشر مستطير، فلا يرجى منها تعليم

ولا تربية، ولا نفع، وكيف يأمل العاقل الشفاء في الداء؟ وهل يخرج الخير من رحم الشر؟ هكذا يريد أن يقول محمد الهادي الحسني لمحاوره حين ساق له سؤال الناس واستغرابهم من سكوته إزاء إسقاط البسملة من الكتب المدرسية، فما كان منه إلا أن يتوجه إليه يسأله "ألم تقرأ أو تسمع المثل القائل: "الشيء من مصدره لا يستغرب"؟ قال بلى قرأت وسمعت"³⁸، يتفجر في هذا المثل معنيان؛ بحيث ينتظم معنى الخير، والخير من مصدره ليس مدعاة للاستغراب أو التعجب، ويتناول معنى الشر، والشر من مصدره لا يستغرب كذلك، غير أن خطيب السخرية استعان بهذا المقتبس من أجل خدمة الأغراض التي يريد توصيلها إلى التلقين، ومن ثم فإن المعنى الذي يرومه محمد ههنا؛ معنى الشر، ذلك أن حذف نص "بسم الله الرحمن الرحيم" من الكتب المدرسية لهو الشر عينه، إن نص "بسم الله الرحمن الرحيم" له قيمته الثابتة في مخيال الأمة.

4. الخاتمة:

السخرية مصطلح نقدي ينتظم معنى الاستهزاء والتهمك والتفكه والازدراء، يلتجئ إليها الناقد الساخر رجاء تعرية المنحرف عن قيم المجتمع، النافخ في الفتن الساقط فيها، وهو مسلك قديم يتوسله الخطيب الساخر لينذر المذنبين ويذكرهم بفداحة جرائمهم في حق أنفسهم والمجتمع، إنه يرسل إليهم تلك الوخزات لعلها تحيي فيهم الشعور بجمال الحياة حين تنسجم سلوكياتهم مع ما تمليه عليهم ضمائرهم، إن التالي أبرز النتائج التي انتهت إليها هاته الورقة:

- توسّل محمد الهادي الحسني منحى ساخرا في جل خطاباتة النقدية جريا على ما تعارف عليه الأقدمون من فلاسفة ونقاد وأدباء وشعراء ومربين ومصلحين.
- لم تكن السخرية هدفا في ذاتها عند محمد بقدر ما كان يروم الاصلاح ما استطاع، والدعوة إلى الخير والتحريض على الاستمسك بالقيم النبيلة.
- جاء خطاب السخرية عند محمد الهادي الحسني ذا بنية لغوية متنوعة، سواء على المستوى اللفظي أم على المستوى التركيبي.
- زواج الناقد محمد الهادي الحسني في نصوصه المقتبسة بين القرآن العظيم، والأمثال السائرة لا سيما الشعبية منها التي تأخذ طابع اللغة العامية، حيث تخير منها ما يخدم أغراضه ومقاصده.

قائمة المصادر والمراجع:

- * القرآن العظيم.
- ينظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، (محمد فؤاد عبد الباقي)، دار الكتب المصرية، القاهرة، ص736.
- محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، ج7، ص147.
- أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تح: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، ج8،
- الزمخشري: جار الله أبي القاسم محمود بن عمر: الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق وتعليق ودراسة:

عادل أحمد عبد الموجود- علي محمد معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، (1998)،

- الألوسي: أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي: روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج23، - الزمخشري: الكشاف، ج5، - الجوهري: اسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين بيروت، ط4، (1990)، ج2، - الزمخشري: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد، أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997، ج1، - ابن منظور: عبد الله محمد بن المكرم بن أبي الحسن بن أحمد الأنصاري الخزرجي: لسان العرب: تح: عبد الله الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، مج3، ج22، - مجدي وهبة: كامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط2 (1984)، - جبور عبد النور: المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط2 (1984)، - المناوي: عبد الرؤوف بن المناوي: التوقيف على مهمات التعاريف، تح: عبد الحميد صالح حمدان، عام الكتب، القاهرة، ط1 (1990)، - مجدي وهبة، كامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، - جوزيف فندريس: اللغة، تر: عبد الحميد الدواخلي، محمد القصاص، تقديم: فاطمة خليل، المركز القومي للترجمة، القاهرة، - محمود فهمي الحجازي: مدخل إلى علم اللغة، دار قباء، القاهرة،

- عبد الفتاح أحمد يوسف: لسانيات الخاطب وأنساق الثقافة – فلسفة المعنى
بين نظام الخطاب وشروط الثقافة-، ط1، (2010)، الدار العربية للعلوم
ناشرون، بيروت،

- الأمدي: الإحكام في أصول الأحكام، ج1،

-محمد الهادي الحسني: مقبرة العلماء، المكتبة الجزائرية الشاملة،

www.shamela-dz.net

-عدنان حسين قاسم: الاتجاه الأسلوبى البنيوي في نقد الشعر العربى، الدار
العربية للنشر،

- محمد الهادي الحسني: ولو كان داود، المكتبة الجزائرية الشاملة،

www.shamela-dz.net

- محمد الهادي الحسني: ولو كان داود، المكتبة الجزائرية الشاملة،

www.shamela-dz.net

- محمد العمري: البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، إفريقيا الشرق،
الرباط،

- عدنان حسين قاسم: الاتجاه الأسلوبى البنيوي في نقد الشعر العربى، الدار
العربية للنشر،

- محمد الهادي الحسني: ولو كان داود، المكتبة الجزائرية الشاملة،

www.shamela-dz.net

- محمد العمري: البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، إفريقيا الشرق،
الرباط،

-محمد العبد : المفارقة القرآنية (دراسة في بنية الدلالة)، دار الفكر العربى،
-محمد الهادي الحسني: عندما تكونوا رجالا، المكتبة الجزائرية الشاملة،

www.shamela-dz.net

- محمد العبد: المفارقة القرآنية (دراسة في بنية الدلالة)
 - محمد الهادي الحسني: عندما تكونوا رجالا، المكتبة الجزائرية الشاملة،
www.shamela-dz.net
 - محمد الهادي الحسني: مقبرة العلماء، المكتبة الجزائرية الشاملة،
www.shamela-dz.net
 - محمد العبد: المفارقة القرآنية (دراسة في بنية الدلالة)، ص 153.
 - محمد الهادي الحسني: الشيء من مصدره لا يستغرب، المكتبة الجزائرية
 الشاملة، www.shamela-dz.net
 الهوامش:

-
- ¹ - ينظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، (محمد فؤاد عبد الباقي)، دار
 الكتب المصرية، القاهرة، ص 736.
² - سورة الأنعام: الآية 10.
³ - محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر،
 ج 7، ص 147.
⁴ - سورة المؤمنون: الآية 110.
⁵ - سورة المؤمنون: الآية 110.
⁶ - أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي: الدر المصون في علوم الكتاب
 المكنون، تح: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، ج 8، ص 371.
⁷ - سورة المطففين: الآية 28، 29، 30، 31، 32، 33، 34.
⁸ - الزمخشري: جار الله أبي القاسم محمود بن عمر: الكشف عن حقائق
 غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق وتعليق ودراسة:

عادل أحمد عبد الموجود- علي محمد معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، (1998)، ص339.

⁹ - سورة الصافات: الآية 12، 13، 14.

¹⁰ - الألوسي: أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي: روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج23، ص76.

¹¹ - الزمخشري: الكشاف، ج5، ص204.

¹² - الجوهري: اسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين بيروت، ط4، (1990)، ج2، ص680، مادة: (س.خ.ر).

¹³ - الزمخشري: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد، أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997، ج1، ص443، مادة: (س.خ.ر).

¹⁴ - ابن منظور: عبد الله محمد بن المكرم بن أبي الحسن بن أحمد الأنصاري الخزرجي: لسان العرب: تح: عبد الله الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، مج3، ج22، ص1963، مادة: (س.خ.ر).
¹⁵ - مجدي وهبة؛ كامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط2 (1984)، ص198.

¹⁶ - جبور عبد النور: المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط2 (1984)، ص138.

¹⁷ - المناوي: عبد الرؤوف بن المناوي: التوقيف على مهمات التعاريف، تح: عبد الحميد صالح حمدان، عام الكتب، القاهرة، ط1 (1990)، ص192.

- ¹⁸ - مجدي وهبة، كامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ص138.
- ¹⁹ - جوزيف فندريس: اللغة، تر: عبد الحميد الدواخلي، محمد القصاص، تقديم: فاطمة خليل، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ص35.
- ²⁰ - محمود فهمي الحجازي: مدخل إلى علم اللغة، دار قباء، القاهرة، ص12.
- ²¹ - عبد الفتاح أحمد يوسف: لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة - فلسفة المعنى بين نظام الخطاب وشروط الثقافة-، ط1، (2010)، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ص23.
- ²² - الآمدي: الإحكام في أصول الأحكام، ج1، ص31.
- ²³ - محمد الهادي الحسني: مقبرة العلماء، المكتبة الجزائرية الشاملة، ص2، www.shamela-dz.net
- ²⁴ - عدنان حسين قاسم: الاتجاه الأسلوبى البنيوي في نقد الشعر العربى، الدار العربية للنشر، ص201.
- ²⁵ - محمد الهادي الحسني: ولو كان داود، المكتبة الجزائرية الشاملة، ص2، www.shamela-dz.net
- ²⁶ - محمد الهادي الحسني: ولو كان داود، المكتبة الجزائرية الشاملة، ص2، www.shamela-dz.net
- ²⁷ - محمد العمري: البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، إفريقيا الشرق، الرباط، ط2، ص100.
- ²⁸ - عدنان حسين قاسم: الاتجاه الأسلوبى البنيوي في نقد الشعر العربى، الدار العربية للنشر، ص296.
- ²⁹ - محمد الهادي الحسني: ولو كان داود، المكتبة الجزائرية الشاملة، ص2، www.shamela-dz.net

- ³⁰ - محمد العمري: البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، إفريقيا الشرق، الرباط، ط2، ص91-92.
- ³¹ -محمد العبد: المفارقة القرآنية (دراسة في بنية الدلالة)، دار الفكر العربي، ط1، (1994)، ص149.
- ³² -محمد الهادي الحسني: عندما تكونوا رجالا، المكتبة الجزائرية الشاملة، ص3 www.shamela-dz.net.
- ³³ -محمد العبد: المفارقة القرآنية (دراسة في بنية الدلالة)، ص111.
- ³⁴ -سورة غافر: الآية29.
- ³⁵ - محمد الهادي الحسني: عندما تكونوا رجالا، المكتبة الجزائرية الشاملة، ص3 www.shamela-dz.net.
- ³⁶ - محمد الهادي الحسني: مقبرة العلماء، المكتبة الجزائرية الشاملة، ص2 www.shamela-dz.net.
- ³⁷ - محمد العبد: المفارقة القرآنية (دراسة في بنية الدلالة)، ص153.
- ³⁸ - محمد الهادي الحسني: الشيء من مصدره لا يستغرب، المكتبة الجزائرية الشاملة، ص2 www.shamela-dz.net.